17 - السيدة أم معبد

أشرف ضيف زارها

اسمها عاتكة، والدها خالد بن خليف، وحين أذن الله لرسولهﷺ بالهجرة إلى يثرب ليخلص من أذى المشركين ونكالهم به وبأصحابه ﷺ، خرج رسول اللهﷺ من مكة يصحبه أبو بكر الصِّدِّيق أول من آمن برسالته، وصدَّق بدعوته، فدخلا غاراً في جبل ثور، ودخل أبو بكر قبل النبيﷺ حتى يتحرَّى له داخله لئلاً يجد شيئاً يؤذيه، فيتلقَّاه دونه، وبقيا في الغار ثلاثة أيامٍ.

وكان عبد الله بن أبي بكر الصِّدِّيق ﷺ يأتيهما بأخبار قريش وتحرُّكاتها، وكانت أخته أسماء – ذات النطاقين – ﷺ تأتيهما بالطعام والشراب، فلما يمَّما شطر يثرب صحبهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكرٍ وعبدَ الله بن أريقط أحد الأدلة الذين يعرفون الطريق إليها، وكانت أشعة الشمس شديدة الوطأة، ورمال الصحراء تكاد تشتعل من فرط الحرارة.

وبعد أن قطع النبيﷺ وصحبه بعض الطريق، لمحوا عن بُعد خيمة رابضة فوق الرمال الملتهبة، فاتَّجه موكبه الشريف إليها، وكانت الخيمة لأم معبد – وهي كنية عاتكة – وزوجها أبو معبد، نصباها على طريق الركبان لاستضافتهم، والعيش على ما يقدِّمونه من أُعطيات.

وقد روى البيهقي – رحمه الله تعالى – أن رسول اللهﷺ ليلة هاجر من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي، فمروا بخيمة أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية.

وكانت أم معبد امرأة بَرْزَةً[1]، جَلْدَةً[2]، تحتبي[3] بفناء الخيمة، فتطعم وتسقي من يمر بها، فسألوها: هل عندك لحمٌ أو لبنٌ يشترونه منها؟ فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك، وقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القِرى[4]، وإن القوم مُرْمِلُونَ مُسْنِتُونَ[5]، فنظر رسول الله ﷺ فإذا شاة في كِسْرِ[6] خيمتها، فقال: «**مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ؟**» فقالت: شاة خلَّفها الجَهْدُ[7] عن الغنم، فقال رسول الله ﷺ: «**فَهَلْ فِيهَا مِنْ لَبَنٍ؟**» فقالت: هي أَجْهَدُ[8] من ذلك، فقال ﷺ: «**أَتَأْذَنِينَ لِي أَنْ أَحْلِبَهَا؟**» فقالت: إن كان بها حَلْبٌ فاحلُبْها؛ وفي رواية: قالت: نعم، بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حَلْباً فاحلُبْهَا.

بركة المصطفى ﷺ تصيبها

فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسحها، وذكر اسم الله، ومسح ضرعها؛ وفي رواية: ظهرها؛ وذكر اسم الله، ودعا بإناءٍ لها يُرْبِضُ الرَّهْطَ[9] وتَفَاجَّتْ[10] واجترَّت؛ وفي رواية: درَّت؛ فحلب فيه ثجّاً[11] حتى ملأه، فسقى أم معبد، وسقى أصحابه، فشربوا عَلَلاً[12] بعد نَهَلٍ[13]، حتى إذا

(1) البَرْزَةُ: العفيفة الجليلة المسنَّة.
(2) الجَلْدَةُ: القوية.
(3) تحتبي: تجلس.
(4) ما أعوزناكم القِرى: أي ما أحوجناكم، بل كنا نضيفكم.
(5) مُرْمِلُونَ مُسْنِتُونَ: أي أصابتهم السنة الجدباء.
(6) الكِسْرُ: الجانب.
(7) خلَّفها الجَهْدُ: أي منعها الهزال عن لحوق الغنم إلى المرعى.
(8) أجهد: أضعف.
(9) يُرْبِضُ الرَّهْطَ: أي يُشبع الجماعة حتى يرووا من اللبن، فيثقلوا فيناموا.
(10) تَفَاجَّتْ: أي فتحت ما بين رجليها.
(11) الثَّجُّ: هو السيلان.
(12) شربوا عَلَلاً: أي الشرب الثاني.
(13) النَّهَلُ: الشرب الأول.

رووا شرب رسول الله ﷺ آخرهم، وقال: «سَاقِي القَوْمِ آخِرُهُمْ شُرْباً»، ثم حلب ﷺ فيه ثانياً عَوْداً على بَدْءٍ، وغادره[1] عندها؛ وفي رواية: قال لها ﷺ: «اِرْفَعِي هَذَا لأَبِي مَعْبَدٍ إِذَا جَاءَكِ».

ثم ارتحلوا، فقلَّما لَبَّثَ[2] أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً[3] يَتَسَاوَكْنَ[4] هُزْلاً، مُخُّهُنَّ قليلٌ[5]، فلما رأى اللبن عجب، وقال: من أين هذا اللبن يا أم معبد، ولا حَلُوبَ في البيت، والشَّاء عازب[6] حِيَالٌ[7]؟! فقالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجلٌ مباركٌ، كان من حديثه كذا وكذا؛ وفي رواية: كيت وكيت، فقال: صفيه لي يا أم معبد.

وصفها الدقيق للنبي ﷺ

فقالت: رأيتُ رجلاً ظاهر الوَضَاءَةِ[8]، حَسَنُ الخَلْقِ، مَلِيحُ الوَجْهِ؛ لم تُعِبْهُ ثَجْلَةٌ[9]، ولم تُزْرِ بِهِ صَعْلَةٌ[10]؛ قسيمٌ وسيمٌ[11]؛ في عينيه دَعَجٌ[12]، وفي أشفارِهِ وَطَفٌ[13]، وفي صوته صَحَلٌ[14]؛ أحور[15]،

(1) غادره: أي تركه.
(2) قلَّما لَبَّثَ: أي ما لبث إلا قليلاً.
(3) العجاف: الهُزلُ الشديد والضعف.
(4) يَتَسَاوَكْنَ: يتمايلن في المشي من ضعفهن.
(5) المُخُّ: الوَدَكُ الَّذي في العظم.
(6) الشَّاء عازب: أي بعيدة المرعى.
(7) حِيَال: أي لم تحمل.
(8) الوضاءة: الحَسْنُ.
(9) الثَّجْلَةُ: عظم البطن.
(10) الصَّعْلَةُ: صِغَرُ الرَّأْسِ.
(11) قسيمٌ وسيمٌ: صفتان تدلاَّن على الحسن.
(12) الدَّعَجُ: شدَّة سواد العين مع شدَّة بياضها.
(13) الوَطَفُ: كثرة شعر الحاجبين والعينين.
(14) الصَّحَلُ: البُحَّةُ في الصوت.
(15) الحَوَرُ: شدَّة بياض بياض العين، وشدَّة سواد سوادها، وهو المحمود المحبوب.

أكحل[1]، أَزَجُّ[2]، أَقْرَنُ[3]؛ في عنقه سَطَعٌ[4]، وفي لحيته كثاثةٌ[5]؛ إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلَّم سما وعلاه البهاء؛ حلو المنطق، كلامه فَصْلٌ، لا نَزْرٌ[6]، ولا هَذْرٌ[7]، كأن منطقه خَرَزَاتُ نَظْم يَتَحَدَّرْنَ؛ أبهى الناس وأجمله من بعيد، وأحسنه من قريب؛ رَبْعَةٌ[8]، لَا تَشْنَؤُهُ عينٌ من طولٍ[9]، ولا تقتحمه عينٌ من قِصَرٍ[10]؛ غصنٌ بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قَدْاً، له رفقاء يَحُفُّون[11] به، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره؛ مَحْفُودٌ[12]، مَحْشُودٌ[13]؛ لا عابس، ولا مُفَنَّد[14].

فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي تطلب، ولو صادفته لالتمست أن أصحبه؛ وفي رواية: لو رأيته لاتَّبعته؛ ثم قال: والله لأجهدنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

هجرتها للمدينة وإسلامها

ثم إن أم معبد هاجرت مع زوجها إلى النبيﷺ، وأسلما وبايعاه،

(1) الكَحَلُ: سوادٌ في أجفان العين خلقة.
(2) الأَزَجُّ: دقيق طرف الحاجبين.
(3) الأقرن: أي مقرون الحاجبين، أي مُلْتقى طرفيهما.
(4) السَّطَعُ: ارتفاع العُنُق وطوله.
(5) الكثاثة: الاجتماع والكثرة.
(6) النَّزْرُ: القليل.
(7) الهَذْرُ: الكثير بلا فائدة.
(8) الرَّبْعَةُ: وسيط القامة.
(9) لا تَشْنَؤُهُ عينٌ من طولٍ: أي لا يُبْغَضُ لفرط طوله.
(10) لا تقتحمه عينٌ من قِصَرٍ: أي لا تتجاوزه إلى غيره احتقاراً.
(11) يَحُفُّونَ: أي يحيطون به.
(12) مَحْفُودٌ: مَخْدُومٌ.
(13) مَحْشُودٌ: أي عنده حَشْدٌ، وهم الجماعة.
(14) المُفَنَّد: الذي يُكثر تخطئة محدِّثه، أو تكذيبه، أو لومه.

وسُمِعَ بمكة صوتٌ عالٍ، سمعه أهلها، ولا يدرون مصدره، ولا يعرفون صاحب ذلك الصوت، وهو يقول:

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ رَفِيْقَيْنِ قَالاَ خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ[1]
هُمَا نَزَلاَهَا بِالهُدَى وَاهْتَدَتْ بِهِ فَقَدْ فَازَ مَنْ أَمْسَى رَفِيْقَ مُحَمَّدِ
فَيَا لِقُصَيٍّ مَا زَوَى اللهُ عَنْكُمُ بِهِ مِنْ فَخَارٍ لاَ يُبَارَى وَسُؤْدَدِ[2]
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَقَامُ فَتَاتِهِمْ وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِيْنَ بِمَرْصَدِ
سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا فَإِنَّكُمْ إِنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ لَهُ بِصَرِيْحٍ، ضَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ[3]
فَغَادَرَهَا وَهْناً لَدَيْهَا لِحَالِبٍ يُرَدِّدُهَا فِيْ مَصْدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ

فلما سمع حسان بن ثابت ﷺ ما قيل من الشعر في مكة قال يجاوب الهاتف دون أن يعرف من هو:

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ غَابَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ وَقُدِّسَ مَنْ يَسْرِي إِلَيْهِمْ وَيَغْتَدِي
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عُقُولُهُمْ وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ
هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلاَلَةِ رَبُّهُمْ وَأَرْشَدَهُمْ، مَنْ يَتْبَعِ الحَقَّ يَرْشُدِ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضُلاَّلُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا عَمًى وَهُدَاةٌ يَهْتَدُوْنَ بِمُهْتَدِ
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبٍ رِكَابُ هُدًى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدِ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَتْلُو كِتَابَ اللهِ فِي كُلِّ مَسْجِدِ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ فَتَصْدِيْقُهَا فِي اليَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الغدِ
لِيَهْنَ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةُ جَدِّهِ بِصُحْبَتِهِ مَنْ يُسْعِدِ اللهُ يَسْعَدِ[4]

(1) قالا: من القيلولة؛ وهي النوم عند الظهيرة.
(2) زوى: قبض.
(3) حائل: لم تحمل، ضَرَّةُ: فاعل تحلَّبت، الصَّريح: اللبن الخالص.
(4) الجَدُّ: الحظُّ.

لا جرم[1] لقد أَجَدْتِ يا أم معبد في وصف رسول الله ﷺ فأحسنت كل الإحسان، حتى بَذَذْتِ كل الواصفين، وفُقْتِ أهل البيان الفصيحين.

ولما قيل لها: يا أم معبد، ما بال صفتك لرسول الله ﷺ أشبه به من سائر من وَصَفَه من الرجال؟ قالت: أما علمتم أن نظر المرأة أشفى من نظر الرجل إلى الرجل؟.

والغريب، بل العجيب أن هذا الوصف الدقيق المبدع من أم معبد لرسول الله ﷺ تيسَّر لها بعد جلسة واحدة معه، لأن زوجها أتى عقب انصراف الموكب النبوي عن خيمتها، وطلب من أم معبد أن تصفه له، وما أحسب جودة وصفها إلا بركة من بركاته ﷺ أمدَّ بها الله لسانها لأنها اجتهدت في إبراز محاسن حبيبه ﷺ ومحامده، فجزاها الله كل خير.

وقيل: إن عليَّ بن أبي طالب - كرَّم الله وجهه - وهو أمير الفصاحة والبيان، سئل: ما أبلغ وصفٍ قيل في رسول الله ﷺ؟ فأجاب عليٌّ رضي الله عنه قائلاً: أجمل وصفٍ وأبلغه قيل في رسول الله ﷺ ما ذكرته أم معبد الخزاعية! فقيل له: وكيف لم يصف أحدٌ النبي ﷺ كما وصفته أم معبد؟ فردَّ رضي الله عنه بحكمته المعهودة وإجابته السديدة: لأن النساء يصفن بأهوائهنَّ[2]، فيُجِدْنَ في صفاتهنَّ.

دفاعها عن رسول الله ودينه

ولما علمت قريش أن رسول الله ﷺ نزل مع صاحبه أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ضيفين على أم معبد في خيمتها، بعثت نفراً من سفهائها في أثرهما، فلما وصلوا إليها فوجئت أم معبد بمجيئهم، ورأت الشر يتطاير من أعينهم، فقال قائلهم: أين محمد يا أم معبد؟.

فردَّت - وهي تخشى عليه منهم - بقولها: أَوَ تسألوني عن أمرِ ما

(1) لا جَرَمَ: أي حقاً.

(2) المراد بأهوائهنَّ هنا: بعواطفهنَّ، وانفعالاتهنَّ النفسية.

سمعت به قبل عامي هذا؟ فقالوا: إنك تعلمين أين ذهب! فقالت: ما أدري ما تقولون.

ولما ألحُّوا في سؤالها، واستبانت الغدر في وجوههم، قالت لهم: لئن لم تنصرفوا عني حالاً، لأصرخنَّ قومي عليكم، وعندها لن تبرحوا مقامكم هذا سالمين.

وحين تبادلوا الرأي آثروا الرجوع إلى قومهم، لأنهم أيقنوا أن أم معبد عزيزة في قومها، وأن صوتاً واحداً تطلقه كافِ لنجدتها، ورضوا من الغنيمة بالإياب، فهم غير مستعدين لقتالٍ قد يخسرون رؤوسهم فيه، وانقلبوا إلى قومهم صاغرين.

لقد شربت أم معبد وزوجها أبو معبد اللبن الذي حلبه رسول الله ﷺ بيديه الشريفيتين، ولم يعلما أن اللبن لم يدخل جوفيهما وحده، بل تسلَّل معه نور الإيمان، وسرى في عروقهما كما سرى اللبن، وكما منحهما اللبن الشبع البدني منحهما الإيمانُ الارتواءَ الروحيَّ فأصبحا مسلمين.

فما أعظم الخير الذي أصابه أهل الخيمة من الضيف الكريم، والرحمة المهداة إلى العالمين!!.

رحم الله أم معبد، وأبا معبد، ورضي عنهما، وجزاهما خير ما جزى به عباده الصالحين!!.